العدد الواحد والعشرون
2004

# مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1372 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسي والافتراضات الإيديولوجية للنهضة الأوربية
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهودية على حركة الاستشراق

# بصمات يهودية على حركة الاستشراق

عمر لطفي العالم
جامعة الفاتح

«لا تحاول، قال لي طالب اللاهوت وهو يدفع إليَّ بصحيفة أسبوعية غربية[1]، فقد انتهى كل شيء ولا جدوى من الدفاع عن قضية خاسرة».

لم يُصبني الدوار لأن كاتب المقال لم يترك لغيره من الشبهات حول الإسلام ما يقول، بل لأنني كثيراً ما قرأتُ كلاماً مشابهاً ظننتُ في بدايته أنه مضى وانقضى وأصبح في ذمة الزمن، منذ أطلق بطرس المبجل على الإسلام اسم (الهرطقة المحمدية) وتبنى فكرة أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم[2]، بل لأنه

(1) صحيفة دي ڤلت الألمانية، أغسطس 1982، صفحة العقائد والأديان بقلم هارالد ڤوكه، رقم ص169، سنة 24.

(2) بطرس المبجل Peter the Venerable، رئيس أساقفة دير كلاني جنوب فرنسا، أول من تبنى فكرة ترجمة لاتينية للقرآن سنة 1141م.

خُيل إلي، كما لو كنتُ أقف وجهاً لوجه مع مقاتل قروسطي تسربل بالسلاح والشنآن حتى الأذقان.

ولقد ازدادت دهشتي، قلْ صدمتي، وأنا أطرح الصحيفة جانباً وعلى لساني بقية باقية من عبارات مُقززة، أهونُ ما فيها قولُه: (لقد كان محمدُ أسوأ من كتب) في إشارة لما عقب له المستشرق الألماني الكبير تيودور نولدكه[3] على بيان القرآن الكريم.

غيرُ واحد أرخ لحركة الاستشراق، لكنَّ القراءات لا تستوي، ولا أكذبك القول في أنني لا ألهث خلف العواطف الخلبية والأماني المعسولة، فقد يجد المؤرخون في التاريخ السياسي تربة خصبة للتلفيق والخداع، ذلك أنَّ التاريخ أقدر العلوم على ابتلاع الكذب، بينما الأمرُ يختلف في التاريخ الحضاري، فالنصُ هو النص، يحتمل الإنكار والتصديق ولكنْ ليس على التأبيد. وبالرغم من مرور ثمانين سنة أو يزيد على تأليف كتاب (تاريخ الدولة الأموية)[4] لمؤلفه يوليوس ڤلهاوزن ومثلها على كتاب (تاريخ الشعوب الإسلامية) لكارل بروكلمان[5]، فالأراجيفُ لم تتزحزح عن موقعها ولا يبدو كذلك، برغم الآراء المهمشة والردود الضعيفة المتناثرة[6] هنا وهناك. وليس هذا حال الاستشراق وحده، بل هو حال معظم المؤرخين وفي كل العصور: إنهم يتأثرون بنزعة عصرهم، وبلَوْنِ مزاجهم، وبالدوافع والأهداف السائدة، سياسيةً كانت أم دينية أم اقتصادية أم اجتماعية. فإذا كُتب على التاريخ أو كتب الناس عليه، أن يكون

(3) نولدكه، تيودور، ويُعرف أيضاً باسم شيخ المستشرقين. وجّه حركة الاستشراق من موقعه بمدينة شتراسبورج (الألزاس واللورين) سابقاً ألمانية مدة تزيد على 70 سنة بحسب ما ذكرت المستشرقة شيمل. وقد وردت عبارته هذه في دراسة ضمت ثلاث مقالات تحت عنوان (مساهمات في علوم اللغات السامية).

(4) ڤلهاوزن، يوليوس، تاريخ الدولة الأموية، معرّب، ط بيروت 1980.

(5) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، معرّب، ط بيروت 1960.

(6) راجع محاضرة د. هشام جعيط في مكتبة الأسد 2001 ـ تحت عنوان «الاستشراق» والمناهج.

مستودعاً للزيف والتحريف، فالاستثناء الوحيد وسط القاعدة المطلقة ـ كما يقول الروائي الإنجليزي[7] هنري فيلدنج ـ هو الأسماء والتواريخ.

أود أن أُسقط هذه الملاحظة على تجربة ربما خفي أمرها على كثير من الباحثين. فلطالما تستر الدساسون خلف أقنعة العلم وشعارات البحث، وصدقهم الناس فيما جهلوا ما قد يكون من دور العقيدة ونكايات العِرْق وتراكمات الماضي. ولقد سلّمتُ يوماً بهذه الحجج، واستسلمتُ (لقدر) المناهج، وكدتُ أنسى في بريق الأسماء والإغراء ما يمكن أن تحمله بعض العلوم من مغالطات وغش. فإذا غدا لعلمٍ كالاستشراق مندوبون ومتحدثون رسميون، بات من الصعب عليك أن تسبّح ضد التيار، وإلا اتُّهمت بأنَّكَ رومانسيٌّ إنشائي.. جَهول[8]!!

تقول السيدة آنْ ماري شيمل: (إن الاستشراق علم.. علمٌ له قوانينه وقواعده وضوابطه)[9].

أقول: كدتُ أقع في هذا الشرك، أن تزِلَّ قدمي فأستكين للقوالب الجاهزة وإيقاعيات التعاريف الرتيبة، عن العودة إلى الأصول والتعامل المباشر مع النصوص بالروح التي كتب بها أصحابها أو ألفوا أو حققوا أو ترجموا.

وقد يكون من المجدي ـ ونحن بصدد تصويب مغالطة كبرى تمَسُّ أكرم ما في التراث وهو كتاب الله ـ أن نُلَمح في عُجالةٍ إلى قلّة العائد وتفاهة المردود من الأحكام الانفعالية حول قضية وُلدت مع ولادة الدين، وسايرتْ ركب الفتوح، ورافقت انتشار الإسلام أنّى توجّه وحيثما سار.

وقبل هذا وذاك، فإن الاستشراق، وإنْ كُتب بغير لسان، وترعرع في أكثر من مكان، وتضافر على صنَاعته ونسج خيوطه بنانٌ وبنان، هو اختراع لاتيني

---

(7) الهلال 1952.

(8) لم يرحم الأكاديميون باحثاً فذاً مثل رايسكه من جحيم سياطهم، فكلما عبر باحث عن تعاطفه مع العرب والمسلمين، لفقوا عليه هذه التهمة التي تُشين بحثه.

(9) مجلة فكر وفن، دراسة بقلم مجدي يوسف/ النسخة العربية 1963/ العدد 30.

النشأة، روحاني الهوى والهوية، متشابك المقاصد والدوافع والأغراض. هو هولنديٌّ بقدر ما هو فرنسي، وإنجليزيٌّ بقدر ما هو ألماني[10]، والقاسم المشترك بين أولئك جُملةً، لم تصنعه إرادةٌ أوروبية حرة، وإنْ انطلقت شرارته الأولى من إسبانيا، ونفخ فيه الروحَ بابا روما، وتناوب على حمل راياته فرسانٌ صليبيون تحت ذريعة تحرير القبر المقدس من أيدي الملحدين»!.

الاستشراق الذي أعرفه ليس صينياً، ولا هندياً، فارسياً أو عثمانياً، وإنْ كان عبق الشرقين الأقصى والأدنى يتضوع من بعض تآليفه وتصانيفه، وإنْ قلَّده أبطاله هذا الاسم تيمناً بالشمس التي تشرق في سماء الشرق ويغيب قرصها ويأفل في أقاصي الغرب. لا إنَّ الاستشراق الذي تقفيتُه خطوةً فخطوة، وتتبعت آثاره أثراً فأثراً، هو غيرُ هذا وخلافُ ذاك. إنه ببدايته طبيعيٌّ، وبناموسه كوني فطري، ابتكره الأوروبيون بدافع التقارب الثقافي أولاً، والفضول المعرفي لعلوم العرب وحضارتهم ثانياً، ومن ثم الخوف من (الغازي) الذي لا تنهزم جحافله أبداً[11]..! فإذا كبا أو انقلب على عقبيه فجأة، فليس الأوروبي الأدنى منا ثقافة، وأهل المعمورة جغرافيةً ـ بشهادة الفيلسوف المؤرخ بيكر ـ طرفاً مشاركاً فيه ولا خصماً مُحرضاً عليه[12]...!

ففي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، أعلنت جامعة بون الملكية البروسية عن مسابقة عامة لأفضل مبحث في الدراسات الإسلامية، وقد ظفر بالجائزة الباحث التوراتي أبراهام[13] جايجر على مبحَثِهِ: (ماذا اقتبس محمد عن اليهودية؟).

لقد شكَّل بلاهوته فارقاً بين زمنين. فقبل هذا البحث وما أحدثه من تداعيات، أثَّرتْ كأسوأ ما يكون على الدراسات العربية والإسلامية، وهي

---

(10) يطيب للبعض أن يقسم الاستشراق إلى مدارس.

(11) أنظر تاريخ حركة الاستشراق ترجمة: عمر لطفي العالم. دار قتيبة وط بيروت 2001. المقدمة.

(12) بيكر، هاينريش، الإسلام في إطار تاريخ الحضارة العام. مجلة جمعية المستشرقين الألمان، سبتمبر 1921، ترجمة: عمر لطفي العالم. مجلة رسالة الجهاد، السنة العاشرة العدد؟ والأصل.

(13) جايجر، أبراهام، ماذا اقتبس محمد عن اليهودية. ط لا يزيغ 1902/ غير مترجم.

التسميةُ الصحيحة في هذا السياق، لم تكن الحركة شريرة التوجُّه بقدر ما كانت حركة تعاويذ، تريد أن تدفع عن نفسها شبح عدوٍ لا تعرف عنه إلا القليل. حتى القرآن لم يصلْ لأيديهم إلا متأخراً لحرص المسلمين أن لا يقع في أيدي غير المطهَّرين[14]. وفي أحسن الأحوال انحصر همُّهم في مناقشة العرض القرآني الخاص بشخصية عيسى عليه السلام وأمه العذراء[15]، وما اتصل بهما من معجزات كما عبر عنها القرآن الكريم، الشيءُ الذي أضفى عليها من بداياتها الأولى صبغة التبشير، وكان رجال الدين همزة الوصل وأداة التوصيل، ما دعا المستشرق فوك للقول: (لقد كانوا هُم ـ أي العرب ـ البادئين)، وعنى بذلك شعوراً بالأسى من الفتح الإسلامي والتهديد العسكري لأوروبا (الموحدون في إسبانيا والترك في البلقان)[16]. على أن هذا الزعم لا يُلغي بالطبع وجود باحثين على هذه الشاكلة من غير اليهود، لكنَّ الذين خبروا المكتبة الاستشراقية يدركون جيداً صحة هذا الادعاء، ومقدار تأثر هؤلاء بالطروح التوراتية، وخير مثال على ذلك نولدكه في كتابه (تاريخ القرآن)[17].

لقد شكل هذا الباحث ببحثه المذكور وما شابه من حنق ديني، شكل ظاهرة هَوتْ بالاستشراق من موقعه المعرفي لمجرد أداة للتشكيك والتحريض. ولأن أحداً لم يُقدمْ على تعريب الكتاب برغم مُضي قرنٍ ونصف قرنٍ عليه[18]، فهذا ملخصٌ بما تضمن من أفكار شريرة تنسجم مع الروح اليهودية اختزلها في نقاط:

أ ـ يقوم منهج البحث المقارن على وجود تشابه بين عنصر أو أكثر في موضوعين من أسرة واحدة ـ هنا الدين ـ ومن زمنين متباعدين.

---

(14) انظر تاريخ حركة الاستشراق، المقدمة.

(15) المصدر السابق نفسه.

(16) المصدر السابق نفسه.

(17) نولدكه، تيودور، تاريخ القرآن ـ 1923 ـ غير مترجم.

(18) صدرت الطبعة الأولى سنة 1880/ غير مترجم. أما الطبعة الثانية ففي لايبزيغ 1902 وغير مترجم أيضاً.

ب ـ إن توفر عناصر مشتركة شرط أساس، لكنَّ وجود تشابه بين عنصر أو أكثر مع الإخلال بالشروط الأخرى لا يعني بالضرورة حدوث الاقتباس.

ج ـ يأخذ المتأخر من المتقدم والعكس غير صحيح.

ولأن الأديان السماوية تنبع من مصدر واحد، كان من الطبيعي أن تتقاطع. غير أن هذا (التبرير) الإسلامي لم يلق من الأكاديميين أذناً صاغية، فتلقفوا ما أُلقي عليهم بوصفها مُسلَّماتٍ علمية لا تقبل المناقشة. من الآن فصاعداً عُدَّ نبي الإسلام نبياً مزيفاً، تعاليمه لا تعدو أن تكون تقليداً وتكراراً أميناً لما جاءتْ به المصادر اليهودية. وإذا كان الباحث جايجر لجأ إلى الطرق الحديثة بالإقناع، فلم يفُته أنه يؤيد الحديث بالقديم حين أورد شاهداً يُستشف منه قناعةٌ تاريخية سابقة، فأعاد إلى الأذهان روايةً للبيضاوي جاء فيها: (إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل قالوا: ذلك عدونا يطلع محمداً على أسرارنا، وأنه صاحب كل خسف وعذاب، وميكائيل صاحب الخصب والسلام، فقال: وما منزلتهما عند الله تعالى؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوةٌ فقال: لئن كان كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفرُ من الحميريين، ومن كان عدوَّ أحدهما فهو عدوُ الله تعالى، ثم رجع عمر فوجد جبريل قد سبقه بالوحي، وقال عليه الصلاة والسلام: لقد وافقك ربك يا عمر[19].

وحقيقةُ الأمر، أن هذا التوراتي قبل أن يخطف هذا المنهج ويوظفه توظيفاً متعسفاً في خدمة العقيدة اليهودية، لم يكن منهج البحث المقارن method قد تبلور وشقَّ طريقه نحو الجامعات والمعاهد الأوروبية العليا. ولم يخطر على بال مكتشفيه (الألماني بوب والأخوان فريدريش وفلهلم شليجل) أن يسخروه لأغراض الدين أو الفلسفة أو القانون، بل قصدوا من ورائه ـ وكانوا جميعاً لغويين تتلمذوا على يَدِ المستعرب الفرنسي سلفستر دي ساسي ـ قصدوا إشباع

(19) تفسير البيضاوي (المجلد الثاني ص91).

نزعة رومانسية لتتبُّع نشأة الأسطورة ووطنها الأصلي باللغة السنسكريتية[20]. وقد وقع ذلك في منتصف القرن التاسع عشر أي بفارق زمني طفيف من ظهور كتاب جايجر.

لقد تأكدت للباحثين الألمان الآن ـ كما يقول بروكلمان[21] ـ الجدوى من ذلك المنهج بعدما تمخض عن استخدامه في الهند نتائج باهرة، وكان ذلك القرن قرن العقلانية والمنهجية والدعوة إلى التشدد في البحث والخصومة مع الدين. يُضاف إلى ذلك أن عمالقة الاستشراق كانوا في عراك دائم حول طرائق فهم الثقافة الإسلامية. فكان من البديهي، والحالة هذه، أن تجد تلك الأفكار مرتعاً خصباً في الأوساط التعليمية. لقد ولى زمن الكلاسيكية والرومانسية، وشرع العقل العلمي في مطاردة فلول المفاهيم والثقافات الماضية وسلطة الكنيسة. لقد كان الأوروبي ـ بإيجاز شديد ـ يرنو إلى اليوم الذي يخلص فيه العلم من قبضة اللاهوت (Autorität)[22].

أُقحم الإسلام في معركة ثقافية أوروبية لا دخل له فيها. كيف أثَّر جايجر، كم عدد الكتب والمباحث والمحاضرات التي أُلقيت أو حُبرت أو أُلّوت بوحي من ذلك الباحث (الفذ) ـ هكذا لُقب فيما بعد ـ مسألة تستعصي على الحصر. ولم يتوقف أثره على عصره، بل تطايرت الشظايا في كل اتجاه، وبالكاد تقرأ بحثاً في الخصوص فلا تجد عليه بصمات جايجر أو ڤلهاوزن أو هوروفتز. وقد نسج أديبنا الكبير أحمد أمين في (فجر إسلامه) على المنوال نفسه[23].

---

(20) أصبح بوب أول أستاذ للغة السنسكريتية سنة 1818 بمدينة بون. وكان يرمي في الأصل إلى التعرف على الأصول الأولى للبشرية.

(21) بروكلمان، كارل، الدراسات العربية في ألمانيا، مجلة جمعية المستشرقين الألمان 1923، غير مترجم.

(22) تزعم المستشرق الألماني جورج ياقوب الحملة ضد الطريقة التي تعامل بها المستشرقون مع الحضارات الشرقية، ولم تتخلص الحركة العلمية والاستشراق بالذات من قضية الكنيسة إلاّ في أواخر القرن 18.

(23) انظر فجر الإسلام، المقدمة، تأليف أحمد أمين.

بعد حين ـ ومن هذا المنظور أيضاً ـ ظهر الكتاب المشؤوم الثاني (بقايا الوثنية في الإسلام)[24] لمؤلفه يوليوس ڤلهاوزن وهو توراتي مثله. عزف على الوتر نفسه ولكنْ من موقع آخر هذه المرّة.

لم يكن ڤلهاوزن مؤرخاً بقدر ما كان أحد فلاسفة التاريخ. وإليه وإلى أضرابِهِ ـ كما يقول ـ يرجع الفضل في إكساب هذا الفرع وقار العلوم. والذي يعنينا هنا: كيف أسهم ڤلهاوزن في هدم القيم الإسلامية، ولأي مدىً نجح في إدخال مبدأ التعليل وهدمِ السرد الميثولوجي للتاريخ.

والجواب: لقد عمل على خطين، فمن جانب لم يخرج من إهاب جايجر ومنهجه في الدين المقارن، ومن جانب آخر زرع بذرة التفسير الديالكتيلي للتاريخ. في الحالة الأولى استند على معطيات جغرافية وطقْسية وُجدت في شبه جزيرة العرب قبل البعثة، وفي الحالة الثانية شكك في (أسباب النزول) وعزا النص القرآني إلى مُحرِكات وعوامل قومية أو اقتصادية أو اجتماعية من بينها الكرهُ لليهود.

فبعدما قَدَّم كماً هائلاً مما تخيله عناصر مشتركة بين تعاليم الإسلام من جهة، واليهودية والنصرانية والوثنية العربية الجاهلية من جهة أخرى، رسّخ تصوراته بالمؤثرات الثقافية التي هبّتْ على المجتمع العربي من نجران والثغور والحبشة وغرب إفريقيا، ومن الداخل، آراميي الواحات الشمالية وتيماء، وخيبر، ويثرب وفدك.

وعقد مقارناته تلك مستفيداً من المصادر العربية ككتاب الأصنام لابن الكلبي، والأزرقي، ومغازي الواقدي. ولم يكن يعبث حين بدأ بالنُصب والأصنام وأمكنتها وأسباب تسمياتها، والكعبة والحجر الأسود، كمقدمةٍ لا غنى عنها للربط بين مناسك العمرة والحج، وما يتصل بهما من إحرام وطوافٍ وسعي ورميٍ للجمار، ووقوف وإفاضة ونحرٍ وتحليقٍ وتهليل وتكبير. وأولى عناية

(24) ڤلهاوزن، يوليوس، بقايا الوثنية في الإسلام، دار نشر فالتر جروتر، برلين 1961، الطبعة الثالثة غير المنقحة، ولا أعرف إن كان الكتاب قد ترجم.

خاصة للسنة العربية القمرية والسبب في اعتمادها بديلاً للسنة الشمسية. وبات من الطبيعي أن يُعرج على أصل الشهور العربية وتسمياتها وفلسفة التسمية لا سيما الأشهر الحرم ومنها رجب بوجه خاص. وقد فصَّل في عرض أيام العرب وأسواقها ومواسمها، كذلك مصدر القَسَم وأهمية الجن والسحر في البيئة العربية. ومن خلال الأسانيد بدا لي أن صاحب (المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) اعتمد كثيراً على دوزي وڤلهاوزن. ولا يمنع هذا التصريح بالطبع من التنويه بأن المؤلف جواد علي أدلى بدلائه، وأفاض وأفاد معاً كما لم يفعل غيره في الخصوص[25]. أنّى التفتَّ في دراساتهم قابلتك العبارة القرآنية «أساطير الأولين» عنواناً للتذكير بما ردَّ به المشركون على الرسول حين كان يتلو عليهم آيات القصص: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾. لقد اتخذ منها المشككون ذريعة على أن المشركين أدركوا في وقت مبكر من البعثة استلافها من الغير لا سيما في مجال القصص. ولقد انزلق عدد كبير من الباحثين الأوروبيين فوقعوا فرائس لهذه المزاعم. من ذلك أن الباحث ريتشارد هارتمان ـ وهو المفتون بالإسلام جملة ـ تعجب من أن ديناً عقلانياً كالإسلام (يقبل) على نفسه أن تكون فيه (وثنية) كتقبيل الحجر[26]. وتوسع آخرون توسعاً فردياً في التنقيب عن النظائر والموازيات، حتى بلغوا في ذلك حداً أثار حفيظة آخرين، ما حمل أحدهم (المستشرق يوهان فوك) ـ وقد ملَّ هذه الظاهرة ـ على القول: (لا نملك أن نجعل من القرآن لوحة فسيفساء)[27]. ولأن اللغة أو فقهها بالأصح كان الوسيلة المتَّبعة في الرجوع إلى الأصول في كثير من الحالات، فقد حمل آخر حملة عشواء على هذا التقعر واصفاً أصحابه اللغويين «.. تيوس اللغة ونباشوا قبور الحضارات».

---

(25) المقتطف هنا مكثف جداً، والباحث فصل كثيراً في هذه النقاط، وكتابه الذي يقع في حوالي 250 صفحة يتناول هذه القضايا بالتفصيل. وكذلك فعل د. جواد علي لا سيما عند حديثه عن الحج (ومناسكه) في الجاهلية والإسلام.

(26) هارتمان، رتيشارد، دين الإسلام، دار نشر ISBN، برلين 1992.

(27) فوك، يوهان، حول أصالة النبي العربي، مجلة جمعية المستشرقين الألمان 1940.

لعل السؤال الذي يفرض نفسه بعد هذا: أين الحقيقة وأين الكذب والتزوير في لائحة الاتهام؟

إن الجواب ـ مهما ارتقى ـ لن يرتفع لمستوى رد شرطي بسيط من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أحد الصحفيين الأجانب حين سأل: لماذا لا تسمحون بإجراء حفريات في البقاع المقدسة كما فعلنا نحن من قبل.. فقد يُقال بعدها إن محمداً كان على حق..؟ أجاب الشرطي: (إن كنتم في شك من دينكم فلسنا في شك من دين محمد)[28]. ومثلُ هذا التصريح قد يبدو للبعض غير (كيِّسْ)، وربما يكون في نظرهم عارياً عن أي منطق علمي. وحيث إن الأمر كذلك، فلنُولِّ وجهنا قِبلةً يرضونها، ولنضربْ في بيداء القدم كما ضربوا، فربما كان لتاريخ الأديان موقف مخالف. نحن إذ نُسلِّمُ من حيث المبدأ بأن علم (الدين المقارن) ربما شكَّل أهم فرع في العلوم الدينية، لدى الدول التي قطعت شوطاً بعيداً في هذا المضمار، نؤكد على خُلُو معاهدنا الدينية وكلياتنا الشرعية من شيء كهذا. ولو سألنا المتخصصين بتدريس العلوم الدينية عن (المشنا أو المدراش) أو عن الفرق بين التلمودين (البابلي والأورشليمي)، لما تلقينا إجابة شافية برغم الأهمية القصوى التي تشكلها مثل هذه المعرفة في سياقات الحديث عن الإسرائيليات، والعكس صحيحٌ فعنايةُ المستشرقين بتراثنا تفوق كل تصور، إذ لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا وأشبعوها بحثاً ودرساً وتمحيصاً[29]. ولوحظ على معظم باحثينا الذين طرقوا باب هذا النوع من المعرفة، افتقارهم لأدنى درجات الإلمام باللغات الشرقية القديمة التي تُعد مفتاحاً لكل شيء، ما يحمل على الاعتقاد بأن المستشرق (باريت) كان على حق في تعريفه للاستشراق على أنه (الفيلولوجيا) (فقه اللغة). ولو سُئل (رجل الدين) المسلم ـ للسبب الآنف الذكر ولغيره ـ عن سبب لهذا التقاطع، لأجاب للفور: (لأن المصدر واحد). لا شك في أن الإجابة صحيحة، ولكنْ ماذا لو عرف

---

(28) انظر دي فسلت، المصدر سبقت الإشارة إليه.

(29) انظر، فياض، نبيل، المدخل إلى مشروع الدين المقارن، دار نشر أكساكت الطبعة الأولى 1996 ص19 وما بعدها.

هؤلاء بأن مباحث النقدية الكتابية تقدمتْ كثيراً في نقدها لنصوص الكتاب المقدس، والكشف عن مصادره وعدم عقلانيته ومدى عقلانيته؟ إن البعض يرى بأن التقاطع بين القصص الديني في القرآن من جهة، وبين التلمود والمدراش من جهة أخرى، هو أكبر منه بين القرآن والكتاب المقدس. فكيف يمكن للباحث المسلم أن يفسر التقاطع خارج الكتاب المقدس، مع العلم أن قلّةً قليلةً من اليهود ما زالت تنظر إلى التلمود على أنه كتاب مقدس، وأن البحوث النقدية التلمودية حققتْ تقدماً كبيراً في شرح أصول التلمود وشخصيات كاتبيه وزمن كتابته، بما لا يترك مجالاً للشك على أنه ليس من عند الله؟! فإذا ثبت ـ بشكل وبآخر زيادةً في الشرح والإيضاح ـ أن كثيراً من طقوس وحكايات الكتاب المقدس والمراجع الأخرى عموماً، تجد جذوراً في (الميثيات) البابلية والسورية القديمة، بالآليات النقد للنص ذاتها، فما الذي يعطيهم الحق في أن يجعلوا من أنفسهم حماةً للفضائل الدينية، ويسوغ اتهام الآخرين بأنهم لصوص ديانات؟! من بعد جايجر ألّف هاينريش شبير كتابه الضخم (القصص الكتابي في القرآن)، الذي أجرى فيه مقابلات منذ خلق آدم عليه السلام وصولاً إلى آخر قصة في القرآن الكريم. كذلك فعل الكثيرون غيره ممّن يضيق بذكرهم هذا المكان فما الذي انتهوا إليه؟

سنضرب بعض الأمثلة من واقع النصوص لعلها تكشف لنا سرَّ التطابق المزعوم: قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾. أشار جايجر إلى مصدر يهودي يتضمن حسب رأيه تعاليم مشابهة وهو «مشنا سانهدرين، 4: 5) من الأدب اليهودي فقد جاء: «نجد أنه مكتوبٌ عن قابيل في الكتاب بعد قتل أخاه: إن صوت دماء أخيك صارخٌ إليَّ (سفر التكوين 4: 10)، إنها ليست [ ] دم أحيخ]، بل [ ] دمي أحيخ، أي دمل قابيل وذريته.. لذا خُلق الإنسان وحيداً، حتى يعلّمكَ، أن من يقتل واحداً من بني إسرائيل، يُحكم عليه وكأنما قتل العالم كله، لكن من ينقذ واحداً من بني إسرائيل، يُحكم عليه وكأنه أنقذ العالم كله».

وتفاصيل القتل هذه معروفةٌ في المصادر الإسلامية، أما المبررات التي قدمها بنو إسرائيل فتدُلُّ على أن كل من يقتل دون أخذ بثأر أو دون أن تكون في البلد أعمال عنف، فيجب أن يعامل كما لو قتل البشرية جمعاء والعكس بالعكس. قبل أن أُعقب بشيء أنتقل لنص آخر: قال تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾[30].

إن مناط التناظر بين الآية الكريمة والمصدر اليهودي موجودٌ لدى «أخنوخ السلافي» الذي يتحدث عن شجرة الزيتون التي في الجنة حيث يقول: «وشجرة الحياة حيث في ذلك الموضع يستريح الله... وبجانبها الشجرة الأخرى شجرة الزيتون، يخرج من ثمرها دائماً الزيت السائل».

إنه المقارنة في كلا الحالتين ـ كما ترى ـ مقارنةٌ غير عادلة هذا إن لم نقل مضحكة. بدايةً من ذا الذي يملك أن يُسوي بين نص يستفظع القتل إلا ما كان بسبب قتل نفس أو إفشاء فساد في الأرض دون اعتبار لجنسٍ، وبين نص ينبعث من سطوره عَفَنُ العنصرية والكراهية، يحرِّمُهُ على نفسه ويسوغه ويستبيحه ما دام يهدر دم الأغيار أو يأخذ بالثأر؟

وفي المثال الثاني يرتبط ذكر شجرة الزيتون وزيتها بأرض مباركة، كلَّم فيها موسى ربه وأقسم القرآن بها والقسَمُ لا يكون إلا بالأشياء الكبيرة. ثم أردفها بآيات أخرى ليجعل منها آية للآكلين والناظرين.

حديثاً توقف عالم بريطاني طويلاً لدى كلمة «صبغ» وسأل علماء المسلمين كيف مرُّوا بالكلمة مرور الكرام!!

تُرى ـ أتساءل ـ أي معلومة قدمتها البيانات الإسرائيلية التي سرق محمدٌ فيها؟!: (إنها في الجنة.. وفي المكان الذي يستريح الله فيه، ويخرج منها دائماً الزيت السائل..؟). أظنهم على حق فإلٰههم زعيم قبيلة وليس ربّ العالمين.

---

(30) سورة المؤمنون، الآيتان: 19 و20.

ولو أننا مضينا في هذه المقارنات التي لا تنتهي قُدُماً، وهي تشمل العبادات، والمعاملات، والتاريخ، والقصص، والأسماء، والأمثال، والغيبيات من جنة ونار، وحساب وعقاب، وجنٍّ وملائكة وما يخطر وما لا يخطر على بال، كتابٌ أصبح فيما بعدُ دستور العرب والمصدر الأول لتشريعهم، ملهم حضارتهم وصانع أمجادهم، هذا الكتاب بمحكمه ومتشابهه، وناسخه ومنسوخه، مكّيةٍ ومدنيَّةٍ. مأخوذ من التعاليم اليهودية وربما النصرانية، فإن لم يكن فمن الجاهلية العربية، وإلا فمن الفارسية المجوسية بحسب ادعاء جولدزيهر حين أخفق في إيجاد الصلة!! دَعيُّ النبوة، رسول الإسلام، الأميُّ الذي ولد وترعرع بين ربوع مكة وفوق بطاحها، كان همُّه الوحيد وشغله الشاغل أن يجلس وينسخ ويؤلف، من يصدقُ هذا الكلام؟!

إنني إذ أقرُّ للمستشرق نولدكه بفضيلة الاعتراف فهُوَ القائل: «لا أستطيع أن أضارع قوماً رضعوا اللغة في لبن أمهاتهم؟»، لأعجبُ أن يكون هو القائل: «إن محمداً كان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب، لكنه سمع القصص الكتابي من الجاليات اليهودية والنصرانية في شبه جزيرة العرب».

ولقد تناول عدد من الباحثين الأوروبيين (المحايدين) هذه المسألة وأعطوها ما تستحق من نقد وتحليل. وكان من بين هؤلاء دانييل نورمان الذي خصَّص جزءاً من كتابه (الإسلام والغرب) جعل له عنواناً «النبوة المزيفة». وقد أورد دفوع علماء المسلمين التي لا تخلو أحياناً من السخرية والنكتة اللاذعة: «جاء للبيروني: إنّ محمداً بن عبد الله سرق من اليهود تعاليمهم فكيف ومتى حدث ذلك؟ الراجح أن قطاع الطرق سطوا على كتبهم الدينية وأسفارهم المقدسة التي حملوها على ظهور حميرهم في أثناء عودتهم من منفاهم في بابل، وأن هؤلاء سربوها لمحمد فيما بعد.. !!».

فإذا نحَّيْنا هذا جانباً، وتنازلنا جدلاً عن السيرة النبوية وما تقدمه من أدلةٍ تدحض هذه الافتراءات بما تقدم من تفاصيل، فقد حفظ منزلُ الكتاب كتابه ورفعه فوق كل شبهةٍ بقوةٍ داخلية لا تتوفر لأي كتاب ديني آخر. وبينما تقطعت السبل بالكتب الأخرى، حافظ القرآن الكريم على متانته وسلامته من التعدُّد

والتحريف والتصحيف مصداقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ومن ثم فقد تواءمتْ مظاهر الحفظ مع وعدٍ سابق به: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

إن التقاطع ـ إن وُجد ـ لا يدل على الأخذ بقدر ما يدل على التصحيح. وهذا القول يتفق مع بعض مهام القرآن التي أُنزل من أجلها، ومع مهمة الرسول الخاتم. فلا التقاطع يعني الشيء نفسه، ولا الأقدمية تجعل (المستعار) منه في الموقع الأقوى.

وإننا لننصح ـ ننصح بصدق وثقة ـ أن لا يُضطر علماؤنا العارفون بأسرار لغتهم المدركون بما في القرآن من إعجاز وعجائب لإجراء مطابقات كلية كتلك التي قام بها مجرمو بني إسرائيل. فإذا وقع ذلك فلن يكون في صالح كتب لا تحمل من الدين إلا الاسم[31].

(31) نورمان، دانيل، الإسلام والغرب، أدنبره، 1980، ص ، النبوة المزيفة ضمن الموقف المسيحي والعلاقات بين المسلمين والمسيحيين ص163 وما بعدها ـ الأصل الإنجليزي.